البحث العلمى والسبيل إليه
من وحى كتاب
شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان للدكتور جمال حمدان

إعداد

أ.د/ نادية يوسف جمال الدين
أستاذ أصول التربية– كلية الدراسات العليا للتربية
جامعة القاهرة

البحث العلمى والسبيل إليه
من وحى كتاب
شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان للدكتور جمال حمدان[١]

أ.د/ ناديه يوسف جمال الدين*

حقًا وجدتها "**كلمات ليست كالكلمات**"، سبقني إليها واستخدمها بدقة الدكتور **جمال حمدان**؛ حين أراد أن يأخذ بيد الباحث ويرشده ويشجعه على البدء في محاولة البحث الجاد في الجغرافيا، وهذه الكلمات عشت معها وتأملتها مليًا ولم أجد ما أعبر به عن إعجابي بها سوى ذلك الوصف الرائع للكلمات المتميزة والمعبرة عن المراد **لنزار قباني** من أنها "**كلمات ليست كالكلمات**"، وجاءت في ديوانه "**حبيبتي**" الصادر عام ١٩٦١م.

وقد اقتبست كلمات الشاعرالفذ لأني وجدتها تحمل شحنة من الإعجاب المشوب بالاحترام لما قرأته لدى هذا المفكر العظيم الذي أبدع فيما قدمه لنا في سفره العلمي الرائع "**شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان**" والذي أخرجه أولًا في كتاب صدر عن دار الهلال في منتصف الستينيات تقريبًا فى السنه التى اجتاحت مصر فيها نكسة يونيو ١٩٦٧م؛ كمحاوله للتشجيع على ضرورة الاستمرار، فالهزيمة في معركة لا تعني الانكسار بقيه العمر، ولكن لا بد من رأب الصدع، وعلاج الجُرح، والمحاولة مرة أخرى، وكان نصر أكتوبر ١٩٧٣م، وأصبح الكتاب الصغير موسوعة من أربعة أجزاء صدرت عن عالم الكتب، القاهرة، والطبعة التي تم الرجوع إليها هي طبعة عام ١٩٨٠م.

ولمن يرغب فى مغامرة البحث العلمى بأى حقل من حقوله التخصصية أتوقف لأهدى إليه حصاد تجربتى و ما انتهيت إليه حين قراءة كلمات الدكتور جمال حمدان هذه وتأملها ومن ثم أقول إن الطريق التى ترغب السير فيها؛ طريق البحث العلمى فى أى حقل من حقوله المختلفة، طريق طويلة، وقد آن لى أن أذكرك بما قاله العالم الجليل جمال حمدان ذلك العالم المتمكن و الباحث فى تخصصه الذى لا يشق له غبار اذ يقول فى رحلة البحث العلمى وعنه: "**إنها يقينا**

---

١ بدون تحديد صفحات، المصدر الرئيسي لما نقدمه هنا هو مقدمة الباب الأول من كتاب جمال حمدان، (١٩٨٠) شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان، القاهرة ، عالم الكتب ج ١، ص ١١ –٦١.

* أ.د/ **نادية يوسف جمال الدين:** أستاذ أصول التربية– كلية الدراسات العليا للتربية– جامعة القاهرة.

رحلة شاقه إلا أنها شيقه، وعرة غير أنها إلى أقصى حد واعدة، مجهدة ولكنها بالقدر نفسه – وفيما نرجو – مجزيه."

واذا كان الدكتور جمال حمدان قد وصف الرحلة التى يجتازها الباحث والأيام والسنوات التى يقضيها فى صحبة بحثه من أجل الحصول على الدرجة العلمية فانه قد قدم فى كتابه المشار إليه سابقا كلمات يمكن أن تعتبرها **علامات هادية على طريق البحث ومصابيح هادية للباحث نفسه**. وقد وقع الاختيار على هذة الكلمات وتم اقتباسهامن مقدمة فصوله الأولى لموسوعته: **شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان** حيث أوجز فى كلمات قليلة ومحددة المعنى والدلالة ليكون مرشدا لأى باحث فى العلوم الإنسانية وخاصة فى علوم التربية والتعليم، كما أري، رغم أنه لم يكتبها أصلا لهم بل للباحثين عموما وأيضا ليس للباحثين فى الجغرافيا وعنها تحديدا مما يؤكد وحدة المعرفة. وأحاول معك أيها القارئ العزيز مرة أخرى هنا قراءتها وتحليلها وتفسيرها للافادة منهافى مجالات البحث الإنسانية المختلفة. أقول ربما تتأملها معى وتضيف إليها أروع مما انتهيت إليه هناإذ أومن يقينا أن: "**رُبَّ حامل علم لمن هو أعلم منه**" كما جاء فى الأثر.

حقًا الكتاب الموسوعة يرتبط بمصر الموقع، والموضع؛ بكل ما يحيط بهما كتبها العالم العظيم عن جغرافية المكان، وكيفية التعامل معها؛ بحثًا فيها وقراءة لها، من أجل تحقيق الهدف ألا وهو التأكيد والإثبات لعبقرية مكان مصروأجدني أحاول استثمار حصاد تأملاتي لهذا في مجال البحث العلمى على إطلاقه والعلوم الإنسانية والتى منها البحث فى التربية والتعليم على الخصوص.

ولكن قبل أن أعود معك أيها القارئ إلى موسوعة **جمال حمدان** الفريدة أحاول في هذا الموضع لفت الأنظار إلى أن **البحث العلمى** هو أحد وظائف الجامعة الأساسية والتى هى **مؤسسة أكاديمية** ويدور فيها تعليم وإعداد الباحثين فى حقول المعرفة المتعددة والمتنوعة . ويخضع البحث العلمى بالتأكيد لقواعد أساسية رصينة تتمثل فى الدقة والأمانة العلمية والنزاهة في الهدف، والمسئولية في الأداء، وغير هذا مما لا خلاف عليه حين الحديث عن البحث العلمي في الجامعة ومراكز البحوث الذي يوصف بحق أنه بحث علمي، والذى يتميز: "**بالمنهجية الصارمة**"، التي باتت تختلف الآن في جوانب كثيرة عما كان سائدًا فيما قبل الحداثة.

ومن المؤكد من وجهه النظر هنا أيضًا: أن البحث العلمى الجيد هو المرتبط تمامًا والموجه "**بالرؤية الأخلاقية**"، وفي هذا تفصيلات كثيرة نتركها للقارئ المتوثب للمزيد من المعرفة ليضيف

إلى ما يذكر هنا ما أثق أنه سوف يكون مكملًا له، ويؤدي إلى ثراء وإثراء الحوار حول البحث العلمى الجيد ومواصفاته والتي تجعل منه بحثًا علميا موثوقا فى نتائجه.

وبعد لقد آن الأوان للعودة إلى ما كان البدء من أجله؛ أى تلك الرؤية التى كان الاجتهاد لاستخلاصها مما جاء فى كتاب شخصية مصر دراسه فى عبقرية المكان تحديدا لنقدمها لك ونتأملها معا لنخرج بالمفيد الذى يمكن أن يشجعك على البدء والاستمرارفى البحث العلمى ومنها العلوم التربوية.

الكلمات الهادية فى طريق البحث الذى تختاره لنفسك كباحث على الطريق:

قدم الدكتور جمال حمدان في موسوعته ،الُمشار إليها سابقًا ، رؤية علمية عميقة تحمل خلاصه العمل والبحث حين حدد في كلمتين هما ما نريد أن نبدأ بهما، حيث قال لمن يريد أن يبحث: "**حدق وحلق**"، حقًا قالها عند الحديث عن البحث في الجغرافيا، وأجد أنها تنطبق على حقول البحث العلمى المتعددة أيضًا، فالباحث في المجال الاجتماعي والإنساني وفي التربية والتعليم تحديدًا على سبيل المثال عليه أن يرى بدقة ويتأمل الظاهرة أو الإشكالية أو المشكلة التي تشد اهتمامه وتمثُل أمام ناظريه، فعليه أن يحدق فيها، في تفاصيلها المختلفة، يتأملها مليًا يحدد ملامحها، يرسم أبعادها، يتعرف ظروفها، ينطلق مما يراه من ظواهر، مؤشرات، اختلالات، اختلافات، أو أفكار سائدة. يتأمل ما يراه في ضوء قراءاته المختلفة والمتنوعة بعمق، ويقلبها على الأوجه الممكنة كافة؛ لتزداد رؤيتها وضوحًا، أو يتمكن من فهمها بصورة أدق وأشمل وأعمق، ويحلق الباحث متدبرًا لكل ما جمعه من معلومات وأفكار، وشاهده من سلوك ووقائع؛ بحثًا عن الأسباب أو التفسيرات أو الاقتراح للجديد أو المختلف الذي يمكن أن يضيف إلى رصيد المعرفة عموما وفي البحث التربوي تحديدًا، وبما يؤدي إلى سعادة الإنسان ورفاهيته وأمنه وأمن المجتمع أيضًا نكرر هذا كثيرًا للأهمية ؛ ذلك أن التعليم والجامعى بما يدور فى كلياته المتخصصة من بحث علمى و نتائجه هو صمام **الأمن القومى**.

فالتحليق أو ما يمكن أن نطلق عليه هنا "**الخيال العلمى**" بل **والحلم** الذي يسعى الباحث المبتدئ إلى تحقيقه أمر من الأمور الأساسية. وقد قيل وبحق أن **الأعمال العظيمة عبر التاريخ الإنساني كانت في البداية حُلمًا في عقل صاحبها أو** أصحابها **قبل أن تتحول إلى واقع ملموس** يراة الإنسان ويفيد منه المجتمع.

تأمل معي "**الهرم الأكبر** " تلك المعجزة المصرية والذي كان قبل البدء فيه وإنجازه **حلمًا** طموحًا عاش واكتمل في عقل من فكر فيه قبل خروج الفكرة إلى النور وحشد الإمكانات كافة والتي انتهت ببنائه الذي ما يزال ماثلًا أمامنا يشهد بعظمة قدماء المصريين وريادتهم وتفوقهم العلمى. وهكذا كان أيضًا **برج إيفل** قبل تشييده حلمًا طموحًا عاش واكتمل في خيال المهندس

الذي صممه قبل أن يخرج للنور ويصبح ماثلًا للعيان شاهدًا على ذكاء وقدرة الإنسان على أن يفعل ما يريد **إذا كان مسلحًا بالعلم والإرادة وليس فقط الخيال**.. والأمثلة من التاريخ على الإنجازات العظيمة كثيرة، **فالطائرة** التي نعرفها الآن كانت كذلك حلمًا لدى الأخوان **رايت**، وحتى **الصاروخ والسير على القمر**، والوصول إلى المريخ، والاهتداء إلى **الراديوم** بل وأيضًا **الأسبرين**، وكذلك **بناء السد العالي وتحويل مجرى النيل**، وغير هذا من الإنجازات العملاقة في تاريخ البشرية ومن أجلها، والتي تركت أثرًا ما يزال باقيًا ومستمرًا، **أقول بدون الحلم الكبير لا إنجازات كبيرة** ... وبدون الأحلام التي تولد في عقل الإنسان الذي يسعى لتحقيقها، ويتحمل من أجلها الكثير من العنت والمشقة والإرهاق تصبح الحياة لا قيمة لها.

ومن هنا يكون "**التحليق**" ليس ضربًا من العبث أو الخيال اللامعقول، وإنما يكون تشبثًا بالأمل في أبعد مداه، وبالأهداف العظيمة في أرقي صورها. وإذا كان التعليم هدفًا عظيمًا في حد ذاته فإنه يصبح بكل مشكلاته ومتطلباته في حاجة ماسة لأن "**تحدق**" أولًا لنرى بدقة ووضوح التفاصيل التي تميز ظاهرة ما من ظواهره، أو مشكلاته الحقيقية المرتبطة بالمعلم، والتلميذ، والإدارة المدرسية، وغير هذا من التفاصيل.

وهكذا ثم "**تحلق**" بعد ذلك في آفاق المعرفة الممكنة، ونسعى في إطار المجتمع؛ بحثًا عن جديد مختلف يقودنا إلى فكره نبدأ البحث عنها وحولها؛ في محاولة لقراءة متغيرات الزمان الحادثة في سرعة، وتحيط بنا تؤثر فينا ونتأثر بها، ربما دون أن نكون أعددنا العدة المناسبة لها مما يوقعنا في المتاعب والمشكلات التي ما زال يمكن تداركها لو حدقنا جيدًا، وحلقنا بحثًا عن حلول لها؛ **كي لا نخسر المستقبل**.

واالتعليم – على سبيل المثال– لكونه **عملية مستقبلية** – تضيف للإنسان المتعلم المعرفة والمهارات والاتجاهات والقيم وتمكنه منها، فإن ذلك ينقلنا إلى الحديث عن مستقبل يُعبر عنا؛ حيث لا بد أن نعتمد على أنفسنا وليس على نقل تجارب الآخرين في هذا المجال والتي يطلق عليها بمنطق المنظمات الدولية المشتغلة بالتعليم "**الممارسات الأفضل**"؛ فما نجح في مكان أو مجتمع بمواصفاته وظروفه ليس من السهل تكراره في مكان آخر بنفس الفكرة والطريقة. فنظم وممارسات التعليم لا يمكن إعادة استنباتها في تربة أخرى تم نقلها عن الآخرين إلى أرض الوطن.. ومن ثم فلا بد من تأكيد خصوصية التعليم فى المجتمع الذى يعلم فيه وكذلك تفاصيل العملية التعليمية، وارتباطها بمجتمعها، مع تأكيد أيضًا أن الاهتداء بأفكار الآخر وتجاربه التعليمية في حاجة إلى الدقة الشديدة، والحرص البالغ. وهنا يزداد وضوحًا ويبرز دور وأهمية البحث التربوي في بلدان العالم المختلفة و منها مصر.. و الذي يستفيد من تجارب الآخرين، ولا

ينقل عنهم، يتعلم مما جاءوا به من أفكار جديدة أو نظريات مفيدة ثم يتدبرها تدبيرًا مليًا **يحدق فيها** بأناة، ويجري البحث أولاً لتعرف إمكانية الإفادة مما لدى الآخر قبل نقله أو تقليده كما هو. ولما كان **كل إنسان فريد،** فكل مجتمع أيضًا فريد باحتياجاته التعليمية، ومتطلباته التربوية، وتفاصيل نظمه التعليمية المغروسة جذورها في تربته.

والتربية والتعليم والبحث التربوي مادتهما الأساسية هى **الإنسان في مجتمعه** بكل مؤثراته وملامحه الثقافية، الإنسان فى اشتباكه مع الواقع... مع النظام التعليمي ... مع التعليم والتعلم وكل هذافى علاقته أيضًا بالواقع المتشابك، والذي لا تنقطع أواصره مع الماضي الممتد والحاضر المنطلق نحو المستقبل القريب والبعيد، مستقبل الإنسان والمجتمع، مستقبل الوطن في دائرة العالم كله ومستقبل الإنسانية جمعاء بكل التغيرات المتوقعة وغير المتوقعة حتى الآن.

ما سبق يوضح ربما – أو يلقي الضوء –على صعوبة البحث فى التربية و التعليم، وأهميته وضرورة الحرص على دقته، وخطورة أن يكون موجها من قبل حزب سياسي أو جماعات ضغط أو رأي عام يبحث في سرعة وقلق عن مصالحه الآنية.

فالبحث في التربية والتعليم لا يتم في معمل معقم أو تضبط قياساته أجهزة دقيقة أو إلكترونية؛ لأن ساحته المجتمع بكل مؤسساته وهدفه الصالح العام للإنسان والبشرية جمعاء . **والبوصلة الأساسية التي توجه البحث والباحث مهما كان مجال البحث هي ضميره، ورؤيته الأكاديمية ذات الأبعاد العلمية، والمبادئ الأخلاقية، وتمرسه الذكى بالمجال مهما كان المنهج المتبع ودقته.**

ولعل ما ذكر آنفا وغيره – يؤكد الرؤية االحاكمة هنا من أن **دراسة العلوم المتعلقة بالانسان لا تعرف البحيرات المغلقة؛** فمصادر وروافد علوم التربية والتعليم التي تكونها وتشكلها كمادة علمية كثيرة ومترابطة ومتداخلة. وأتذكر أنه في أول محاضرة في كلية التربية جامعة عين شمس كان التأكيد يدور حول صعوبة دراسة التربية؛ حيث إنها **مادة اشتقاقية** أو **علم اشتقاقي،** تستمد مادتها العلمية أو أصولها من كثير من العلوم والفنون، والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد، والسياسة، والاجتماع، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، والإدارة والطب، والأدب على تنوع فنونه، وغير هذا من العلوم الاجتماعية والإنسانية والبيولوجية وغيرها المتزايدة في تفريعاتها والتي تأخذ الإنسان والمجتمع والمستقبل مادة لها ثم تبرز ثقافة المجتمع بكل ما تحمله وتفرضه من تميز المجتمع الذي تربي له وتعلم الانسان الذى يعيش فيه.

ومن هنا تأتي صعوبة البحث في التربية إذ تُبنى على نتائج علوم كثيرة أخرى وتشتق أو تستمد مادتها من أنهار وجداول علوم إنسانية متشعبة متزايدة ومتراكمة ومتجددة باستمرار.

فالتربية إذا تعتمد على **الاستعارة** بحرية أو الاستفادة الحقيقية من كل فروع العلم ما استطاع الباحث إلى هذا سبيلًا في ضوء المشكلة التي حددها للدراسة ومجال بحثه. ومن هنا فالقارئ للبحوث التربوية يجد في قائمة المراجع الكثير من الكتب المرتبطة بتخصصات أخرى، إذ يجد كتبًا للتاريخ والاجتماع والاقتصاد والسياسة كما سبق الإشارة أنها قبل أن يجد كتابات في التربية بفروعها وعلم النفس، وهذا هو مناط **الصعوبة** في البحث التربوي بعلومه المتعددة، وأيضًا الضعف والقوة في آن واحد في مجال التخصص في التربية والتعليم.

فالباحث غير القادر على ضبط الإيقاع، وتحقيق التكامل الوظيفي بين المصادر المتنوعة وبين بحثه من حيث مجال تخصصه، أو الباحث غير المتمكن من أدواته المتميز بضيق حدود بحثه لا يستطيع أن يأتي بمادته الأساسية من مراجع هذه العلوم؛ حيث إنه غير قادر على الاهتداء الكافِي إلى مسالك العلم التربوي المختلفة. أما الباحث المتمكن من فكرته، وأدواته والمستبصر بمشكلته، والواثق فى مجال بحثه والمتمسك بقيمه المهتدية والنابعة من القيم الأخلاقية النبيلة فإنه يدرك أنه يتعامل مع الإنسان بكل ما يرتبط بهذا الإنسان من علاقات متشابكة ومتداخلة لا انفصام بينها.

فالتربية إذا بالنسبة للمتخصصين في علومها، ليست **علم اشتقاقي** فقط كما سبقت الإشارة، بل ينطبق عليها مع كلمات جمال حمدان "**التخصص في عدم التخصص**"، فقد كان لكلماته المحددة هذه ووصفه لعلم الجغرافيا الحافز على تأمل وتدبر الأصل فى هذا كله والذي نواصل ونبحث من أجله، ويعد محور الكون ألا وهو **الإنسان** بكل ما يميز البشر من فروق فردية وتربيته في مجتمعه ولزمانه المتغير في سرعة. والتربية ودراستها والبحث فيها مثل الجغرافيا تمثل التخصص في عدم التخصص وعلى الباحث في التربية أن يصول ويجول بحرية ومسئولية في كل دروب العلوم التي يتطلبها بحثه عن الإنسان ومن أجله. وعلى الباحث والحالة هذه أن يتبع ما رآه **جمال حمدان** حيث ذكر: " **أن الباحث عليه أن يربط الإنسان بالأرض- الإنسان بالمجتمع- الحاضر بالماضي- المادي باللامادي- العضوي بغير العضوي- ويكاد يتعامل مع كل ما تحت الشمس وفوق الأرض**"، وأقول كل ذلك في ضوء شرط نراه قاطعًا هو معالجة قضيته الإنسانية المجتمعية في الحاضر والمستقبل بوجهة نظر أصلية وصادقة، ومرة أخرى فإن **مسئوليته أخلاقية** أساسًا .. فعليه إذا وهو يعمل ويبحث من أجل تكوين الإنسان؛ ليكون نفسه، وليعيش في مجتمع هو جزء منه، ويتشكل بثقافته، في وطن هو موضعه كما أن له موقعه بحكم الجغرافيا.

ولعل هذا كله يؤكد حقًا أن التربية بهذا لا تعرف البحيرات المغلقة، وإن أمكن القول إنها: **علم تكاملي** بالضرورة وهي كذلك ليست علم: "**من كل بستان زهرة**"، كما أشار جمال حمدان عن الجغرافيا، فالتربية مع موسوعيتها ذات موضوع أصيل هو **الإنسان** ومجال يضمه هو **مجتمعه**، وفي زمان العولمة وثورة الاتصالات له اهتماماته العالمية وآفاق استشراف هو **المستقبل.**

فالتربوي يقرأ في أى تخصص من التخصصات والعلوم والمجالات المرتبطة بالإنسان. لكنه لا يكتب إلا تربية ... يتعلم التربوي من كافة العلوم ويعيد تقديمها في مضمون تربوي أخلاقي خلاق؛ فالإنسان هو المادة الخام، وما أروعها وأثمنها! والهدف الذي لا يغيب هو تهيئة هذا الإنسان؛ ليعيش في مجتمع متغير بصورة عاصفة الآن.

والتربية كالتاريخ لا يعيد نفسه كما هو مشهور عنه لدى البعض، كما تشبه **الجغرافيا** التي قال عنها جمال حمدان: "**لا تعيد نفسها بالضبط**". فالتربية لا تشكل البشر كلهم على شاكلة واحدة، ومن هنا جاءت القاعدة الأساسية لدى التربويين من أن "**كل فرد فريد**". فالفروق الفردية لمسه أساسية في البشر بفعل عوامل الوراثة، والبيئة، والظروف الاجتماعية، والمؤثرات الأيدلوجية، وما تؤدي إليه وسائط التعلم ووسائل الإعلام على تنوعها وانتشارها، وكذلك وسائل الاتصال الإلكترونية أو الرقمية السريعة، وهذا بالإضافة إلى النشأة الدينية، وتأثير الأسرة وغيرها من المؤسسات الاجتماعية التي هي مؤسسات تربوية.

ومع ما سبق الإشارة إليه من فروق فردية إلا أن التربية تعمل في نفس الوقت على تجميع الأفراد في البيئة والزمان والمكان؛ ليكونوا نمطاً متميزاً ينتمي لمجتمع محدد ووطن بعينه، وذلك أن التربية من وظا ئفها التنشئة الاجتماعية، هذا بالإضافة إلى ما هو مشهور عنها من أنها تعمل على: "**أنسنة الإنسان**" أي تحويله من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي.

وبناءً على ما سبق فالباحث التربوي هو باحث كما وصفه البعض مثل:" **النحلة**" يحط على الحقول والبساتين والأزاهير المختلفة يأخذ من رحيقها؛ ليخرجه **عسلًا مصفى،** مثال بسيط ولكنه يوضح امتزاج وتكامل العلوم المختلفة؛ لتخرج مادة تربوية مختلفة عن كل ما ارتشفه من رحيق على يد باحث لا يكف عن التساؤل والاجتهاد والتدبر في مجال لا يقبل الخطأ أو الغموض أو الشك في أبحاثه ونتائجها.

ومن ثم فحين نتابع ما أشار إليه الدكتور **جمال حمدان** ويمكن أن نتبناه ونتمثله في مجال البحث التربوي؛ حيث **التحديق** في كل ما يحيط بنا من عوامل ومستجدات ومتغيرات وما يؤدي به هذا إلى التحليق من عبور الى آفاق مستقبل المجتمع المصري وعلى امتداد عمر الأجيال

المتعلمة كما هو مطلوب حاليًا وقبل الآن، ويصبح من المطلوب "**التنقيب والتقليب**" عبر طبقات التاريخ المتراكمة؛ بحثًا عن الجذور لما هو ظاهر الآن من اتجاهات ومشكلات.

والتقليب والتنقيب هنا في صفحات تاريخ التعليم المصر المضيئة، وفترات ازدهاره، وعوامل تراجعه، وأسباب الإقبال عليه أو العزوف عنه، وأسباب اختيار تخصصات بعينها، أو ضعف الإقبال على تخصصات أخرى منه، وهكذا. وهذا كله من أجل أن نقدم تفسير للواقع أو مقترحات تحد من مشكلاته، أو رؤية للمستقبل، مستقبل هذا الوطن الموجود قبل مواطنيه بكل أجيالهم والباقي بعدهم والخالد على مر الزمن كما نتمنى دائمًا.

فالتعليم في حال نجاحه أو قدرته على تحقيق متطلبات المجتمع منه يمكن أن نطلق عليه "**الحلم الجماعي**" بشأنه "**والضمير الجمعي**" من أجله؛ ذلك أننا لا نستطيع إغفال دور التعليم في تحقيق أهداف المواطن والوطن وطموحاتهما معًا. ولا ننسى أبدًا أن جذور التعليم تمتد عبر طبقات المجتمع المتراكمة خلال السنوات والحقب والقرون سواء تعاملت معها الرياح فطمرتها تحت الصخور والرمال، أو أثرت فيها بفعل عوامل التعرية، فنراها أمامنا دون أن نفطن؛ لربطها بالماضي فلا نستطيع تفسيرها أو تبريرها.

وقد يمكن القول هنا بأن **الجزء الغاطس الأكبر** في التربية والتعليم هو البعد المجتمعي الأعمق، والذي تتغلغل فيه الجذور التاريخية الممتدة عبر السنيين الطويلة التي تحمل بصمات وملامح كفاح الأجيال المتوالية؛ من أجل التعليم والحصول على ثمراته.

ويتزايد الاعتراف عالميًا ومحليًا بأن التعليم تحديدًا يمكن النظر إليه على أنه "**وثيقة اجتماعية**" يوضح محتواها الأحوال الاجتماعية للمجتمع، ويرتبط بهذا أيضًا أن **التاريخ يعد** "**المنجم**" كما كان يشير الأستاذ الدكتور **أبو الفتوح رضوان** أستاذ التربية وعميد كلية التربية بجامعة عين شمس إبان الستينيات، فهو بمنزلة المنجم الثري للتعليم والبحث التربوي إذ من الصعب إجراء التجارب التعليمية على الإنسان وانتظار نتائجها إن سلبًا أو إيجابًا. ولذا فالرجوع إلى تاريخ التربية ونظام التعليم الذي كان يقدم التعليم بصوره في عمقه الزماني المرتبط بالمكان بكل ما كان يموج به من عوامل اجتماعية ضاغطة أو مشجعة.

فدروس التاريخ لها قيمتها وأهميتها في التربية، ومن هنا وبناءً عليه لا يتوقف البحث التربوي أو الباحث فيه عند "**التحديق والتحليق**" بل يتطلب "**التقليب والتنقيب**" أيضًا وبما يؤدي إلى تزايد رصيد المعرفة الأصيل، والمرتبط بالوطن تاريخه وثقافته، والمواطن حاضره، ومستقبله، رغباته وطموحاته، وسعادته، واستقراره، وأمنه.

ومهما يكن من رأي فمصر في حاجة إلى بحوث جادة، ومخلصة علمية أصيلة، في جوانب التعليم كافة؛ حيث المشكلات المتجددة والمتزايدة تتبدى أمام العيان. فالتعليم هو **بوابة الأمل** وصمام الأمان على الساحة المحلية أو العالم الأوسع في هذا الزمان خاصة وهناك ظواهر تتطلب إعادة النظر في سياسات متعددة تتم الآن.

فالتعليم بنظامه "**نظام فرعى**" كما يطلق عليه رغم أنه مكون أساسي من كل متكامل من نسيج المجتمع المصري، وهو الوسيلة الأساسية للعبور إلى مستقبل آمن لا يعبر فيه شباب مصر المتعلم غالبًا بأي وسيله البحر المتوسط في مغامرة دافعها القنوط في الداخل والأمل في الخارج؛ بحثًا عن فرصة عمل أيًا كان نوعها، وأيًا كانت نتيجة المغامرة بصورة لم تحدث من قبل بهذا الشكل والكثافة.

وهو ما يدعونا لأن نذكر هنا مرة أخرى كلمات صاحب شخصية مصر جمال حمدان، والذي رأى أن مصر لم تكن أبدًا: "دار هجرة" بقدر ما اشتهرت بأنها "مصب للرجال".. هذا يوضح لنا كيف غابت عن عيوننا في مصر أشياء كثيرة، لم نتوقف للبحث عنها بثقة، وكان أن انقلب الأمر، وتراجعت قيم كثيرة أمام قيمة المال مهما كان مصدره.. معلوم أو غير معلوم.

لقد آن الأوان لأصحاب الشهادات ومن يمنحونها أن يعيدوا النظر فيما قبلوه على أنفسهم، **فالمستقبل لن يكون إلا بالتعليم الجيد للجميع والبحث العلمي وتطبيق نتائجة فى كافة المجالات الانسانية. ونتائج البحث العلمي هي الوسيلة الأساسية للتجديد**.. وبدون تجديد فلا أمل في البقاء، إنها التنافسية الشديدة عالميًا الآن. التنافسية التي ترتكز على التعليم والبحث العملي، وتطبق نتائجه بسرعة غير مشهودة من قبل. من هنا وأولًا لا بد و**أن يكون الإنسان هو الأساس** فيما نتحدث عنه، ونحن نتحدث عن التعليم.. الإنسان المتعلم الذي هو حامل مشعل التقدم والمنطلق به في شتى آفاق الكرة الأرضية.. بحثًا عن عمل، ومنافسًا من أجل فرصة حياة أفضل بواسطة التعليم الذي يميزه، ولم لا؟ فالمجتمع الأوروبي يتزايد فيه كبار السن هذا هو مجتمع الشمال، وأفريقيا وخاصة تلك التي تقع دولها مقابل دول أوروبا على شاطئ المتوسط.. دول الجنوب لديها وفرة من الشباب أنه مجتمع شاب، ويحتاج شبابه للعمل، وتمتلك دول الشمال فرص العمل التي يمكن أن يقوم بها هؤلاء الشباب. إن الاتصال والتواصل سمة أساسية من سمات زماننا هذا وبالتالى فالتعاون وتبادل المصالح يمكن ان يؤدى إلى مانتمنى ان يسود العالم كله من سلام.

وبعد أرجو أن يجد القارئ فى كلمات الراحل العظيم جمال حمدان ما حاولت أن أشركه معى فى قراءتها وتأملها عسى أن تهديه فى طريق البحث العلمى ... وأن تساعده أيضاعلى اقتحام بساتينه بحثا عن وروده .... وأذكره أيضا أنها لا تخلو من اشواك.